Journal of Engineering Sciences, Assiut University, Vol. 36, No. 6, pp.1535-1550, November 2008

QASER AL KHARANH A CIVILIZE MONUMENT BETWEEN CONSERVATION METHODOLOGY AND IT'S LOST

قصر الخرانة معلم حضاري بين منهجية الحفاظ وضياع المعلم

بحث مقدم من د. جمال شفيق عليان
قسم العمارة وعلوم البناء - كلية العمارة والتخطيط
جامعة الملك سعود – الرياض
عضو المجلس العالمي للمعالم والمواقع ICOMOS – باريس

(Received July 28, 2008 Accepted August 25, 2008)

The purpose of this research is to investigate and analyze the Umayyad desert castles that are located in Jordan between Amman and Azraq.
It was historically considered as a connecter of the caravanserais that were going between Damascus, Baghdad and Hijaz. Qaser al Kharanah is considered as a significant architectural monument that represents an important period of the Umayyad civilization.
This castle is now deteriorated because of two reasons, weather conditions and lack of established strategy of conservation.
The Department of the Antiquity started doing some restoration jobs that were not based on scientific bases which causes more damage and deterioration.
This research is representing a new methodology for conservation. The results indicate that this strategy is appropriate and will be helpful to present this monument and could be applied in other historical sites.

ملخص البحث:

قصر الخرانه هو قصر أموي في وسط الطريق بين عمان والازرق، وتاريجيا كان عبارة عن حلقة وصل مهمة على طريق قوافل يصل بين دمشق وبغداد ومدن الحجاز، ضمن منظومة لقصور بني امية كمحطات استراحة بين اجزاء الخلافة المهمة.

قصر الخرانة معلم معماري يمثل عمارة فترة تاريخية مهمة من الحضارة الاموية في الاردن خاصة، وفي عمارة المسلمين عامة، وهي من العمارة النادرة الوجود بسبب اندثار معظم المباني التي تعود لتلك الفترة.

بالاضافة الى وضع القصر المهلهل بسبب عوامل التعرية، قامت دائرة الأثار العامة باعمال ترميم للقصر، لكنها ليست مدروسة ولا ممنهجة، مما ادى الى زيادة مظاهر التلف فيه مما ينذر بضياع المعلم.

يهدف البحث الى طرح منهجية للحفاظ على القصر تعتمد على اسس علمية لوضع حلول منطقية تعتمد على ما جاء في المواثيق العالمية للحفاظ المعماري.

وينتهي البحث بنتائج وتوصيات تصب في تحقيق الهدف الذي تم رسمه من حيث توضيح المنهجية التي ينبغي ان تستخدم للحفاظ على هذا القصر كما ويمكن الاستفادة منها لدراسة اعمال مشابهة في الترميم المعماري.

اشكالية البحث:

يعاني القصر في الوضع الراهن من مشكلتين أساسيين هما التردي الانشائي أولا، حيث يعاني حاليا من مشاكل انشائية وتصدعات كبيرة تظهر في واجهتي القصر الجنوبية والغربية. ونتائج أعمال الترميم الخاطئة ثانيا، والتي هي عبارة عن اصلاحات عشوائية غير ممنهجة ولا تفي بالغرض. ينذر هذا الوضع بضياع المعلم بكامله بعد ضياع الكثير من أجزائه ومن قيمه الثقافية.

أهداف البحث:

- فهم القيم الثقافية الكامنة في المعلم وخاصة القيمة التاريخية.
- فهم عمارة القصر وعلاقته بالقصور الاموية في تلك الفترة.
- فهم علاقة القصر بالبيئة المحيطة به.
- العمل على وضع خطة علمية يمكن تنفيذها بمنهجية واضحة، هدفها الحفاظ على ما تبقى من قيم ثقافية ومن جماليات في ذلك القصر قبل ان نفقده الى الأبد.

منهجية البحث:

- اجراء دراسة تاريخية استقصائية لمراحل انشاء المبنى من خلال دراسة ادبيات الموضوع والحفريات الاثرية التي تمت في الموقع وتم توثيقها ونشرها وأيضا من خلال استقراء المبنى وعناصره المعمارية والانشائية ومن خلال دراسة تاريخية مقارنة لتلك العناصر مع ما هو موجود في قصور أموية موجودة في نفس المنطقة.
- تحليل القيم الكامنة في المعلم وتحديد الاهميات.
- تطور التصدع والضعف في المبنى وفهمها عبر العامل الزمني.
- دراسة تشخيصية عامة لوضع التصدعات وتاثيرها على سلامة المبنى.
- وضع خطة ممنهجة لترميم المعلم، ضمن المعايير العلمية العالمية للترميم.

قصر الخرانة معلم حضاري

قصر أموي يقبع في الصحراء الأردنية على بعد 60 كيلو متر عن عمان في وسط الطريق بين عمان والأزرق وهو عبارة عن حلقة وصل مهمة على طريق القوافل الذي كان يصل بين دمشق والكوفة ومدن الحجاز (مكة والمدينة)، لقد جاء إنشاء هذا القصر ضمن منظومة لقصور بني أمية (من دمشق إلى

بصرى إلى قصر عمان ثم الموقر وقصير عمرة إلى قصر الأزرق ويتجه (أنظر الشكل رقم 1) جنوبا مرورا بدومة الجندل وهناك يتفرع الطريق باتجاهين جنوبا إلى الحجاز وشرقا إلى البصرة والكوفة) لقد بنيت القصور المذكورة (ليست جميع قصور بني أمية كانت لهذا الهدف[1]) كمحطات استراحة لرحلات الساسة من بني أمية بين أجزاء الخلافة المهمة. كان يقتضي نظام قصور الاستراحات هذا أن تكون المسافة بين كل قصرين ما يقارب 30 كم، وهذا هو حال المسافة بين القصور

شكل رقم 1 المملكة الاردنية الهاشمية، موقع قصر الخرانة [1].

المتبقية من هذا النظام (عمان والموقر والخرانة وعمرة والأزرق)، لذا يمكننا أن نستنتج عدد القصور المندثرة من هذه الطريق، وذلك بالاعتماد على تلك المسافة التقريبية (ما بين 25 إلى 35 كم) بين محطات الاستراحة، وهي المسافة التي تقطعها القافلة بمسيرة نهار اليوم وتحتاج بعدها لمأوى واستراحة وأمان ونوم لليلة ذلك اليوم.

وما زال موقع قصر الخرانة ذا أهمية لأنه واقع حاليا على الطريق الدولي الذي يربط الأردن بالسعودية والعراق.

تأتي الحضارة الإسلامية الأموية لتوحد نتائج ثقافة معمارية لحضارتين متناحرتين فيما بينهما في بوتقة جديدة من عمارة القصور الأموية وخاصة في عمارة قصر الخرانة؛ فالنظام الإنشائي في القصر وتقنيات البناء (في الجدران مثلا بالحجر البركاني صفا وبالصفائح الحجرية المغروزة في الطين في صف لاحق) واستخدام الأبراج الداعمة ذا أصول شرقية ساسانية فارسية (ولقد تم استقطاب تلك العناصر من قبل العرب المناذرة موالي الساسانيين) أما النوع المعماري ونظام عيش الفراغ فجاء بنكهة سورية عبر العرب

[1] كانت هناك قصور أخرى لبني أمية في بلاد الشام بنيت للاستجمام والراحة والتسلية كما كانت هناك قصور أشبه بالخانات التجارية وهذا الجانب ما زال يمثل مجالا مفتوحا في دراسة تاريخ العمارة الإسلامية.

الغساسنة موالي البيزنطيين. ومما يثبت الاستنتاج ما جاء من نتائج حفريات ستيفن يوريس (Stephen Urice) حيث وجد أن أساسات القصر تعود للفترة الأموية[2] [2 ص 44].

لا شك أن الأمويين اوجدوا تقنيات جديدة محدثة بالإضافة إلى ما وصلهم من الحضارات القديمة كما هو في الجزء المضاف في مرحلة ثانية (أنظر لاحقا فقرة التراكم التاريخي) من بناء القصر حيث تم استخدام جداران مبنية بخليط من الطين والأحجار ولقد جدد الأمويون أيضا في نظام الزخرفة والديكور الذي قام على أسس نباتية تجريدية مرجعيتها سعف النخيل.

هذا النوع من التعامل الحضاري للأمويين مع الإرث المعماري الوارد من الحضارات السابقة (شأنه في ذلك شان التعامل مع العلوم الأخرى الواردة من الأقدمين) واستخدامه وتطويره والزيادة عليه لتأصيل مدرسة معمارية خاصة بهم أتت أكلها في الفترة المتأخرة من خلافة بني أمية وأثرت على تطور العمارة العربية الإسلامية في فتراتها اللاحقة، كما نرى ذلك جليا في عمارة قصورهم المهيبة في مثل قصر هشام بن عبد الملك في أريحا وقصر المشتى في جنوبي مدينة عمان، حيث أصبح لها شخصية معمارية خاصة بها من حيث تقنيات البناء بالحجر والطابوق ومن حيث أساليب الاستخدام الوظيفي للفراغات وأنظمة الزخرفة وتعقيداتها مما حدا بفريق من الألمان على سرقة[3] جزء كبير من واجهة قصر المشتى في الربع الثاني من القرن العشرين (كما تثبت ذلك مقارنة تواريخ الصور التاريخية للقصر) وتم نقله من موقعه إلى احد متاحفهم في برلين، وكأن هذا التعامل الغربي مع التراث الوارد من الأمويين في سلبه ونهبه وتصديره وتغريبه عن موطنه جاء على عكس التعامل الحضاري الذي قام به الأمويون مع التراث الوارد إليهم من أعدائهم (ساسنيين وبيزنطيين) في فهمه وتوظيفه وتطويره بالطريقة الأفضل لميلاد نهضة معمارية وثقافية وحضارية إسلامية جديدة.

الزخرفة في واجهة قصر المشتى المسروقة تعتبر حجر زاوية في أسس تصميم الزخارف الإسلامية ومرجعيتها المبنية على استخدام الأشكال النباتية التجريدية مع استخدام الشكل المثلث الهندسي كحاضن وموزع لها.

عمارة القصر

قام ستيفن يوريس بحفريته خلال عامي 1979 – 1980 م. وكان كتابه المذكور عملا قيما جاء نتاج عمله البحثي من تحليل لتاريخ المبنى وقيامه بحفريات أثرية وضحت كثيراً من النقاط الغامضة من مكونات القصر.

[3] إن سرقة المعالم المعمارية وأجزاء منها وبيعها للمتاحف الأوروبية لهي ظاهرة لا إنسانية ولا حضارية وتجارة مقيتة سادة وبقوة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين (في فترة الاستعمار الغربي للمشرق العربي والإسلامي) على أيدي قراصنة الثقافة والتراث الغربيين ومن جميع أرجاء العالم العربي والإسلامي، ويزداد وجود الظاهرة كلما فقدت السلطة والرقابة (مع وجود ميثاق لليونسكو يحرم هذا النوع من التجارة) مثل ما حدث مؤخرا للتراث الثقافي والأثري العراقي الذي تم نهبه وسرقته في وضح النهار وبالنقل المباشر عبر الفضائيات وتحت أعين آلات التصوير في فترة الحرب الأخيرة وفيما بعدها.

قصر الخرانة مربع التخطيط بمقاييس 34.50 X 36.20 مترا وبارتفاع 9.80 مترا، على زواياه الأربع توجد أبراج داعمة للإنشاء (انظر الشكل رقم 2)[4] الواحد منها أتى على شكل ثلاثة أرباع الدائرة وفي وسط جدرانه الخارجية هناك أبراج داعمة أيضا أتت على شكل أنصاف دوائر، ما عدا الواجهة الجنوبية حيث يحيط بمدخل القصر ربعا دائرة (أي أن النصف انقسم إلى نصفين)، مما يعطي القصر هيبة القلعة المحصنة، يعلو المدخل تسعة ألواح جصية منها خمسة زخرفية على شكل سعف النخيل، كما يوجد شريطاً زخرفياً يحيط بالمبنى من جهاته الأربع من الطوب الطيني المائل بزاوية 30 درجة على ارتفاع 650 سنتيمترا، ويوجد أسفل منه ب 165 سنتيمترا شريطاً آخرا مشابه له يحيط فقط بالأبراج البارزة عن الجدران تأكيدا بصريا على هيبتها وأهميتها.

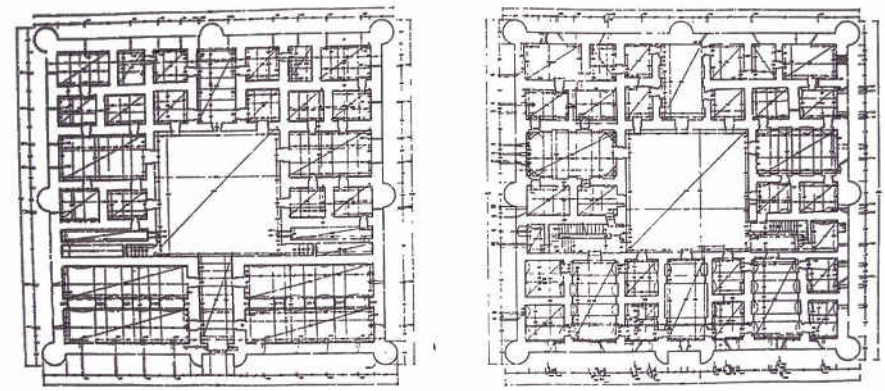

شكل رقم 2 أ،ب. قصر الخرانة، رفع هندسي متري، مسقط أفقي للطابق الأرضي ومسقط للطابق الأول.

شكل رقم 2ج. قصر الخرانة، الواجهة الجنوبية الرئيسية

[4] ملاحظة: جميع الأشكال من عمل الباحث ما لم يذكر خلاف ذلك. وجميع الصور المدرجة في البحث تم التقاطها من قبل الباحث في شهر أغسطس من العام 2008 م.

الوسطي حول الساحة السماوية) تتجمع عدة فراغات من خمس إلى ست غرف وتكون جميعها وحدة متكاملة ومنفصلة عن الوحدات الأخرى في الطابق الأرضي والذي على ما يبدو كان مستعملا من قبل المرافقين لصاحب القصر، أما الطابق الأول فكان مستخدما فقط من صاحب القصر وأقاربه من الدرجة الأولى، والدليل على ذلك وجود مسارين حركة لربط فراغات القصر مع بعضها الأول يأتي عبر الفراغات نفسها محاذي للجدران الخارجية ومقابل للمسار الثاني الخارجي الذي كان يأتي من خلال الرواق المنهار في داخل الساحة السماوية كما يظهر من وجود أبواب القاعات الرئيسية للبيوت المطلة على الساحة، تمت دراسة إعادة بناء البورتكو بالرسم الهندسي وذلك بالاعتماد أولا على نتائج الحفرية الأثرية التي قام بها ستيفن يوريس وثانيا بالاعتماد على الدلائل الهندسية المتبقية في جدران الساحة الداخلية للقصر (انظر الشكل رقم 3).

يأتي الاتصال العمودي في داخل القصر عبر درجين (الواحد منهما بعرض 120 سم) موجودين بين الجناح الجنوبي (في الطابق الأرضي يفصلا الإسطبلين الكائنين حول بهو المدخل) والجناحين الشرقي والغربي المستخدمين للسكن، ويعمل الدرجين كفاصل مادي ووظيفي بين أجنحة الطابق الأول. يوصل الدرجين إلى السطح حيث يمكن أن يستمتع الناظر من هناك بمنظر خلاب وبأفق لا منتهي.

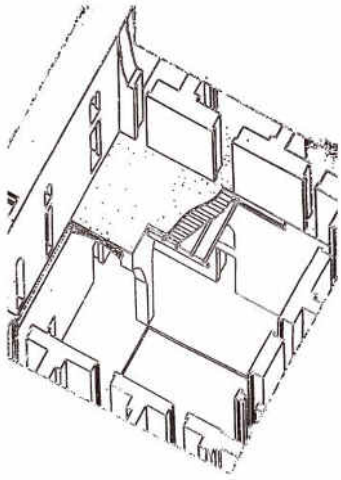

شكل رقم 3. مقترح تصوري من قبل المؤلف لإعادة بناء الرواق المتهدم داخل الساحة السماوية المفتوحة في القصر، بناءً على دراسة الدلائل الأثرية والمعمارية.

في بيت الدرج وفي منطقة البسطة توجدا دورتا الماء(الخلاء). كما يوجد نظام لتصريف المياه في القصر عبر فتحات ومصارف في أرضيات قاعات الطابق الأول.

والنظام الأكثر أهمية في القصر هو نظام التهوية القائم على وجود في فرق الضغط الجوي داخل وخارج فراغاته ولذا تم اختيار مساحات الفتحات بعناية مما يحدث حركة شفط قوي للهواء القادم من الجهة الغربية عبر فتحات صغيرة تعادل كمية الهواء الداخلة منها نفس الكمية الخارجة من الفتحات كبيرة المساحة الموجودة باتجاه الساحة الداخلية (أنظر الشكل رقم 4)، الذي يحدث في القصر ينطبق مع نظرية برنولي "ضغط المائع المتحرك يقل بازدياد سرعته" التي وضعها في القرن التاسع عشر[3 ص 102] وما يعرف بتأثير برنولي (Bernoulli effect).

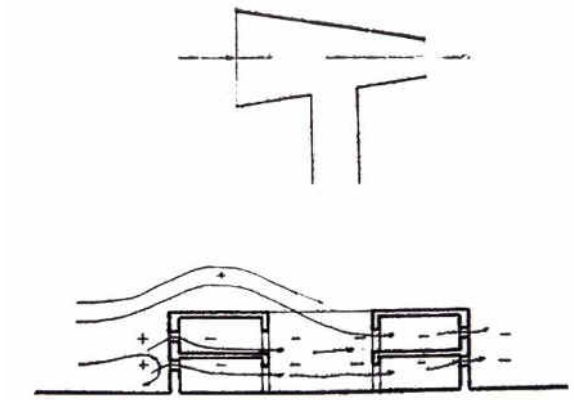

شكل رقم 4 أ. رسمة توضيحية تبين أسس نظرية برنولي لتحرك الهواء بسبب الفرق في الضغط الجوي بين الأماكن[2 ص159]. 3ب. قصر الخرانة دراسة تطبيقية لعمل شفط الهواء من خلال الفتحات الصغيرة.

التراكم التاريخي للقصر بدراسة الدلائل المعمارية فيه

تقنيات الإنشاء واستخدام المواد وطرق الزخرفة جاءت على نظامين مختلفين عن بعضهما مما يؤكد وجود تراكم تاريخي لفترتين متتاليتين لبناء القصر.

أ. تقنيات البناء واستخدام المواد:

تم استخدام نظامين بناء مختلفين وبمواد مختلفة الواحد عن الآخر مما يؤكد أن بناء القصر جاء على مرحلتين متتابعتين ففي المرحلة الأولى تم استخدام أحجار بركانية وجيرية بتقنية الأقبية البرميلية المنخفضة وكلها حجرية محمولة على أقواس مستعرضة مبنية بنفس القطع الحجرية وهذه الأقواس المستعرضة ترتكز بدورها على جدران حجرية مبنية بتقنية ذات أصول شرقية ساسانية حيث وضعت صفوف متتالية أحدها بالحجر الكبير (بارتفاع 50 سم تقريبا) يتبعها صفا بالصفائح الحجرية الأصغر ارتفاعا (من 12 سم إلى 15 سم) المغروزة في الطين وهكذا بشكل متتالي. أما النوع الثاني من الجدران والأقواس المستعرضة والأقبية (الذي استخدم في المرحلة الثانية للبناء) فجاء على شكل خليط من الحجر

الجيري الأبيض اللون والطين المستخرج من وادي الخرانة القريب، وهذه التقنية ما زالت مستعملة في الأردن حتى بداية القرن العشرين حيث يتم تطعيم خلطة الطين المبني بطريقة العروق بقطع حجرية (لتزيد من قوة تحمل البناء) غير منتظمة في داخل الجدران لكنها في الأقواس والأقبية توضع حيث توجد إجهادات الضغط الأعلى ومن المؤكد إضافة مادة الجير للخلطة الطينية ليعطيها تماسك وعازلية للماء أكبر.

وبتتبع هذا التغير في التقنية والمواد نستطيع أن نحدد ما ينتمي للمرحلة الأولى وما ينتمي للمرحلة الثانية من البناء كما يلي:

الطابق الأرضي والجناح الغربي من القصر ينتميان للمرحلة الأولى بينما استكمال التسقيف في الجناحين الجنوبي والشرقي فيعودان للمرحلة الثانية.

الغريب أن موقع تغير تقنية البناء ومواده في قصر الخرانة، كما يظهر في واجهات القصر من الخارج، لم تأتي على ارتفاع نهاية الطابق الأرضي (بارتفاع 4.80 م) بل جاءت بعد صف حجري فوق زخرفة شريط الطوب الطيني في الواجهات الخارجية أي بعد الصف الرابع عشر على ارتفاع 7.50 مترا.

هذا النوع من التراكم المعماري في المبنى يقودنا الى وضع ثلاثة احتمالات للاسباب التي أدت الى حدوثه كما يلي:

الأول: أن المواد المستخدمة لبناء المرحلة الأولى قد نفذت فاضطر المعلم بالاتفاق مع المالك إلى استخدام تقنية مختلفة وبمواد أخرى اقل تكلفة وأكثر تواجدا.

الثاني: أن العادة في بناء الدور كانت تقتضي إكمال الذروة فوق الطابق وبارتفاع 270 سم ولعل الدليل على ذلك التراس المتبقي من القصر في الجناح الشمالي حيث تثبت الصور التاريخية انه بقي على حالته الأصلية.

الثالث: من الممكن أن يكون قد توفي صاحب القصر ولم يكتمل بنائه (للطابق الأول) فأكمله من تبعه في امتلاك القصر بالبناء بتقنية ومواد جديدة، ليظهر ذلك ويعرب عن شخصية المالك الجديد والتدليل على إكتمال المبنى في عهده.

من الدراسة للثلاث فرضيات الواردة يبدو أنه من الصعب بداية ترجيح أحداها على الأخرى ولكن بالاستعانة بدراسة النظام الزخرفي يمكن ترجيح احد الفرضيات على الاخرى.

ب. نظام الزخرفة:

من تحليل نظام الزخرفة في القصر يبدو واضحا وجود نظامين مختلفين والرابط بينهما فقط الشكل الدائري (انظر الشكل رقم 5)، وهذا دليل آخر على أن التغيير في المواد والتقنيات الإنشائية تبعت تغييراً في الحس والتذوق الفني مما يعني أن صاحب المبنى قد تغير مما يعزز الفرضية الثالثة من الفقرة

السابقة أي أن صاحب المبنى الذي بدأ في بناء القصر قد توفي قبل إنهاء المبنى وأكمله من خلفه في الملك بالبناء بتقنيات ومواد جديدة وبنظام زخرفي جديد.

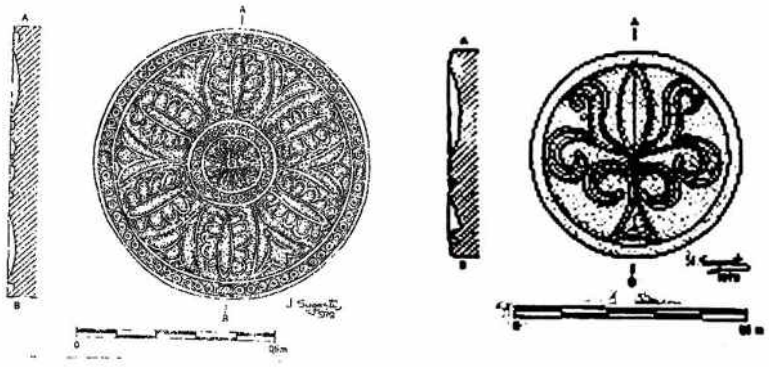

شكل رقم 5 أ،ب الشكلين الزخرفيين المستخدمين في مرحلتي بناء القصر، تشابه في الشكل الدائري واختلاف في المادة الزخرفية [1 ص 73].

من خلال استقراء تاريخ وأحداث مرحلة حكم بني أمية [4][5]، التي بني فيها القصر، يظهر بأن بناء الجزء الأول من القصر يعود الى فترة حكم الوليد بن عبد الملك أما إكمال البناء في مرحلته الثانية ففي أغلب تقدير يعود الى فترة حكم يزيد الثاني بن عبد الملك.

ومن خلال الرجوع للكتابات في الجناح الغربي من الطابق الأول (بناء من المرحلة الأولى) يثبت أن الذي سكن في القصر وترك كتابات تشير إلى ذلك تعود للعام 710 م أي في فترة حكم الوليد بن عبد الملك (705–715م) مما يعني أن الفترة الأولى من البناء تعود إلى تلك الفترة أو إلى فترة تسبقها بقليل، ومن المرجح أن يكون بناء المرحلة الأولى للقصر قد جاء في نفس الفترة التي اهتم فيها الوليد بالصحراء الأردنية فبني لأخيه – والي المنطقة – قصرًا في عمان العام 707 م، أما المرحلة الثانية فمن المحتمل أن تكون في فترة حكم يزيد الثاني (720–724م)، والذي من المحتمل أن يكون هو نفسه صاحب بناء قصير عمرة القريب من الخرانة والذي بني بنفس التقنية المستخدمة في المرحلة الثانية لقصر الخرانة.

وهذا منطقي، ويتجانس مع ما سارت إليه الأحداث في تلك الفترة، حيث أن ضعف الدولة وضعف إمكاناتها المالية حال دون استخدام التقنيات والمواد المكلفة التي تمت في فترة ازدهارها في عهد الوليد حينما بنيت المرحلة الأولى من القصر.

ترميم دائرة الآثار العامة والمواثيق العالمية:

[5] من خلال كتب التاريخ مثل كتاب ابن كثير. *البداية والنهاية في التاريخ*، دار السعادة. القاهرة، 1930 م.

كانت تعتمد أعمال الترميم في دائرة الآثار العامة في السبعينات من القرن الماضي (حين تم ترميم قصر الخرانة وفي فترة ندرة وجود المتخصصين من مرممي العمارة التاريخية والآثار) على إصلاحات عشوائية لا تفي بالغرض تقوم على قاعدة الفزعة الغير ممنهجة فكلما اشتكى من القصر جزء أو آل للسقوط تداعى "لترميمه" من كان بالقرب منه بما تيسر لديه من خبرة ومن مواد خراسانية مسلحة أو غير مسلحة. أوضح مثال على ذلك ما تم على سطح القصر من وضع خلطة خراسانية بسماكة تتجاوز العشرين سنتيمتراً مما أثقل كاهل السقف بالوزن الزائد ولم يغني عن استمرارية نفاذ الرطوبة إلى داخل جدران وفراغات القصر (انظر الشكل رقم 6).

شكل رقم 6 أ. قصر الخرانة، الخلطة الخراسانية القوية والسميكة على سطح القصر وأسفل منها المواد الأصلية الضعيفة المتردية.

الشكل رقم 6ب،ج. قصر الخرانة، أسقف فراغات في الطابق الأول تعاني من مظاهر تلف متعددة مثل نفاذالرطوبة ووجود ظاهرة تزهر الأملاح والتعفن في بعض الأجزاء داخل القصر.

الغريب في مثل هذه الأعمال أن القائمين عليها يظنون أنهم يحسنون صنعا ويدافعون عنها بقناعة أن عملهم هو الأفضل ضمن قاعدة "ليس بالإمكان أن يكون أفضل مما كان". ليست المشكلة في عدم وجود المتخصصين في الحفاظ المعماري بل المشكلة في عدم السعي لجلب هؤلاء المتخصصين والاستفادة منهم إن وجدوا.

لا بد بداية من تحليل ومعرفة الوضع الراهن والمشاكل الإنشائية ومشاكل المواد وأسباب المشاكل وإيجاد الحلول لها.

الايجابية الوحيدة للترميم الذي تم على القصر هو المحافظة على أجزاء القصر متماسكة مع بعضها وعدم تفسخه وضياع البناء بالكامل، وهذا أمر في حد ذاته ايجابيا، لكن من ناحية تخصصية فان المرمم يرنو إلى هذه النتيجة بدون إحداث سلبيات، أو يجب التقليل منها قدر الاستطاعة.

ولذا ولتقييم العمل لا بد من ذكر سلبيات الترميم الذي تم في القصر، بأيدي غير متخصصة، وذلك بمقارنة العمل مع معايير الترميم الحديثة، ويمكن إجمال نقاط الترميم السلبية مع ذكر أين يكمن عدم تجاوبها لمعايير الترميم العالمية[6] [5] فيما يلي:

- تمت تعبئة الشقوق في أسقف الطابق الأرضي بمادة الاسمنت مما أدى بعد مرحلة وبسبب تمدد مادة الاسمنت أكثر من مادة الحجر إلى ظهور عملية التشقق من جديد.
- تم إكمال ما كان ناقصا من سقف الطابق الأول (من زوايا ركنية وأقواس وأقبية) بطريقة مستعجلة لم تعطى حقها في الدراسة والتحليل والتوثيق، لذا خرجت أسقف غريبة الشكل عن السائد في القصر كما حدث في الغرفة رقم 48 حيث تم تسقيفها كلها بقبو برميلي ضخم لا ينسجم والنظام الإنشائي لباقي القصر.
- لاستكمال الجزء الأعلى المفقود من الطابق الأول في القصر تم استخدام مواد حجرية مع خلطة إسمنتية مبالغ في وزنها وفي نسب كمية الحجارة إلى الخلطة بعكس النسب الموجودة في خلطة الطين مع الحجر الأصلية "أقل تدخل ممكن". هذا سيؤدي على زيادة الاجهادات الضاغطة على الجدارن القديمة أسفل منها.
- إضافة المواد الخرسانية ذات التحمل الأكبر لعوامل التعرية فوق مواد ضعيفة (من الطين والحجر ذات التحمل الأضعف) سيؤدي إلى طول عمر القوية وفقدان الضعيفة بسبب عدم التجانس بينهما وسيتم توجيه وتركيز كل عوامل الضعف على المادة الأقل قوة.

[6] تؤخذ معايير الترميم المعماري العالمية كمرجع عام لاعمال الترميم وتوجد في المواثيق العالمية والتي هي عبارة عن نتائج لابحاث وتجارب المتخصصين على مستوى عالمي والمؤسسة العالمية التي تعنى بهذا التخصص وتتابع تطور وتحديث هذه الدراسات هو المجلس العالمي للمعالم والمواقع ICOMOS ومركزه الرئيسي في باريس، وسنجد ملخصا لهذه المعايير في فقرة منهجية ترميم حفاظي مقترحة من هذا البحث.

- تدخل على السطح بخلطة إسمنتية مطعمة بقطع حجرية وبسماكة كبيرة (بين 20 و 25 سم) والنتيجة أن عملية الترميم جاءت غير منعكسة (أي لا يمكن ازالتها).
- مادة الاسمنت تحتوي على أملاح معدنية وبسبب ذوبانها في مياه الأمطار ستنتقل كمحلول لتستقر في مسامات مادة الحجر التاريخية (الموجودة أسفل منها) مما سيؤدي إلى تزهر هذه الأملاح مما سيؤدي إلى حدوث تلف فيزيائي مما يعني تشققات وتقشرات وضعف وتلف للحجر.
- إغلاق الباب في الواجهة الشرقية دون الاعتماد على دراسة لتاريخ وطرق استخدام القصر (الدفاعية). إن عدم احترام القيمة التاريخية في القصر هو السبب في مثل هذه الأخطاء، مما يثبت مرة أخرى بان عملية الترميم جاءت مستعجلة دون دراسة تاريخية وافية للمعلم ولم يكن الهدف الأساسي منه الحفاظ على تلك القيمة التاريخية فيه.

المتخصص في الحفاظ المعماري

كيف نحدد من هو المتخصص في الحفاظ المعماري؟ وما الفرق بينه وبين المتخصص في الحفاظ الأثري؟ وما العلاقة بين كل من اصحاب هذين التخصصين؟

حسب ما جاء في المادة الثانية من ميثاق البندقية الصادر عام 1964 فان "الحفاظ والترميم للمعالم يمثلان تخصصا تستخدم فيهما كل العلوم وكل التقنيات التي تؤدي إلى دراسة والى إنقاذ المبنى". وكذلك فان المادة الثالثة من نفس الميثاق توضح بان "الحفاظ والترميم للمعلم تهدفا إلى إنقاذ العمل الفني كما تهدفا أيضا لإنقاذ الدلائل التاريخية".

أما الحفاظ الأثري (كفرع تخصصي من الحفاظ المعماري) فيقوم بربط المعرفة بالتاريخ وبالمادة وبالقيم الأثرية للموقع، وكما جاء في المادة الثامنة (تحت عنوان النوعية المهنية) من الميثاق الدولي لإدارة التراث الأثري الصادر عام 1990 "الهدف من التدريب الأكاديمي الأثري ينبغي أن يأخذ بالحسبان التغيير في سياسة الحفاظ من الحفرية الأثرية إلى الحفاظ الوقائي في المكان".

من ذلك يتضح أن التخصصين مكملان لبعضهما ولا بد من توافق الجهود ومن تكاملها في أعمال الحفاظ سواء الأثرية أو المعمارية فهناك أعمال تكاملية بين التخصصين لا بد من وجودهما ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

منهجية ترميم حفاظي مقترحة

الترميم الذي توصي به المواثيق العالمية[7] [6، 7] الصادرة عن الايكوموس وخاصة ميثاق البندقية تركز على مفهوم الترميم الحفاظي [6 ص 114–115. 7 ص 22–23] بمعنى أن الهدف من الترميم هو

[7] تجد المواثيق العالمية بالنص الانجليزي في موقع الايكوموس www.icomos.org كما توجد ترجمة لأهمها في كتاب:

الحفاظ على القيم الثقافية والاجتماعية في القصر وكذلك الحفاظ على المادة المكونة لعناصر المبنى التاريخي، أي يجب على الترميم أن يحافظ على أصالة المعلم، فلا يحدث فيها أي تغيرات بالاعتماد على قواعد أساسية تمت مناقشتها من خلال المواثيق العالمية للحفاظ ويمكن إجمالها[6 ، 8] في النقاط الرئيسة التالية:

- التمييز بين المواد المضافة والمواد الأصلية من خلال النظر بالعين المجردة وعن قرب.
- أقل تدخل ممكن من حيث التقليل قدر الإمكان في حجم وكمية المواد المضافة، والحرص على عدم إزالة المواد الأصلية.
- التجانس بين المادة المضافة والمادة الأصلية كيمائيا وفيزيائيا وشكليا ولونيا.
- انعكاسية الأعمال المضافة (أي يمكن إزالة الحلول المقدمة) في حال تم الحصول على وثائق لحلول أكثر صحة.
- أن لا يغير التدخل في شكل وحجم المبنى الأصلي خارجيا من إضافة أو نقصان ولا داخليا من حيث التلاعب في الفراغات المعمارية الداخلية.

وبناء على هذا المنطلق يتم تقديم هذا المقترح لترميم قصر الخرانة على أمل أن تجد هذه الدراسة صدى وتقبلا من أصحاب القرار في دائرة الآثار العامة في وزارة السياحة والآثار في المملكة الأردنية الهاشمية التي سعت دائما ولم تألُ جهدا بما لديها من قدرات وخبرات في احتضان التراث والاهتمام به وصيانته، وذلك بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه من معلم قصر الخرانة، الذي يعتبر عالميا حجر زاوية في تأسيس وتأريخ عمارة المسلمين، وفهم العناصر الحضارية لتلك الفترة الذهبية في فترة نشأتها.

يقوم المقترح على تحقيق النقاط الرئيسية التالية:

- دراسة المشاكل الإنشائية ومعرفة أسبابها وتقديم حلول لها، وخاصة بما يتعلق بالإضرار الوقعة على الواجهتين الغربية والجنوبية من دفع العناصر الإنشائية من باقي القصر لهما باتجاه الخارج، مما أدى إلى تشققات مستمرة بين الواجهتان وباقي القصر (انظر الشكل رقم 7)، مما سيؤدي على المدى الطويل إلى سقوطهما، إذا لم يتم ربطهما بباقي القصر بطريقة هندسية سليمة وصحيحة.

- جمال عليان. *الحفاظ على التراث الثقافي. نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته*. سلسلة كتب عالم المعرفة صادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. عدد رقم 322 الكويت ديسمبر 2005 .ص 231-244.

نجد في ميثاق البندقية من المادة التاسعة إلى المادة الثالثة عشر شرحا تفصيليا لعملية الترميم الموصى بها من قبل المتخصصين الذين وضعوا ميثاق البندقية والذي ما زال يعتبر مرجعا للمواثيق التي جاءت من بعده في أوساط المتخصصين وعلى مستوى عالمي.

الشكل رقم 7, قصر الخرانة، شقوق مستمرة بين الواجهة الجنوبية وباقي القصر

- التخلص بقدر الإمكان من خلطات الاسمنت المضافة على سطح القصر دون الإضرار بالعناصر والمواد الإنشائية الأصلية، والعمل على عزله ضد الإمطار بطريقة لا تؤذي المواد الأصلية.
- إكمال الرواق (العنصر المعماري) المتهدم من القصر، في وسط الساحة الداخلية السماوية، بطريقة تمكن مستقبلا من إزالته دون التأثير سلبا على العناصر الأصلية في القصر إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وإعادة تأهيل نظام تجميع مياه الأمطار وسط الساحة والتي كشفت عنها الحفريات الأثرية التي قام بها يورس في نهاية ثمانينات القرن الماضي.
- إعادة فتح الباب في الواجهة الشرقية كما كانت قبل تدخل الترميم من سبعينات القرن الماضي.
- استبدال القصارة (اللياسة) الإسمنتية (من الترميم السابق) بأخرى طينية واستكمال الساقط منها في واجهات القصر الداخلية والخارجية، والعمل على وضع خطة دورية لصيانة القصر.
- ترميم العناصر الزخرفية الخارجية (شريطا الطوب الطيني والألواح الجصية فوق مدخل القصر) والداخلية (الأقراص الزخرفية الجصية بنوعيها من مراحل البناء).
- ترميم العناصر المعمارية الداخلية (الأقواس والزوايا الركنية والأقبية) بشكل لا يشوهها ويحافظ عليها.
- إعطاء الباب الخشبي الحالي لون داكن يتجانس مع لون الباب القديم الذي ظهر في صور تاريخية تعود لنهاية القرن التاسع عشر.
- إعادة استخدام القصر (تم تقديم مقترح من خلال دراسة سابقة لإعادة تأهيله كمتحف للحضارة الأموية [9 ص 903–911]) مما يضمن استمرارية القيام بالصيانة الدورية ويساعد في الحفاظ عليه.

هذه الأعمال في مجملها، والتي ستضمن لنا سلامة المعلم واستمرارية وجوده، لن تكون تكلفتها المالية بأعلى من تكلفة المبنى الذي تم بنائه مؤخرا كمركز للزوار بالقرب من القصر (انظر الشكل رقم 7)، مع أن الزوار يأتون لزيارة القصر ويقضون فيه

شكل رقم 7. صورة من فوق قصر الخرانة باتجاه مركز الزوار المبني مؤخرا على مقربة من القصر

أضعاف الوقت الذي يقضونه في الاستراحة، وكان بالإمكان تأجيل وتأخير بناء الاستراحة وتعجيل عملية الترميم والحفاظ للقصر، خاصة وان خيمة الزوار السابقة (بيت الشعر) كانت قائمة بمهمة استقبال زواره لعشرات من سنين قد خلت.

النتائج والتوصيات:

يمكن إجمال نتائج وتوصيات البحث فيما يلي:

- بنيت القصور الأموية بين دمشق والحجاز وجنوب العراق ضمن نظام استراحة القوافل للمسيرة اليومية، وهذا يفتح المجال للبحث عن القصور المندثرة من ذلك النظام.
- قصر الخرانة وأمثاله من قصور بني أمية التي كانت تربط الشام بالعراق وبالجزيرة العربية بنظامها وتدعم روح ووحدة الثقافة المعمارية العربية في أصولها التي قامت على توحيد ثقافات متناحرة مسبقا الساسنية الشرقية والبيزنطية الغربية في بوتقة إسلامية جديدة.
- التراكمات التاريخية في القصر تظهر من عدة دلائل يمكن أن نستقرئها من عمارة القصر كي نستطيع صياغة قصة وتاريخ المعلم.
- ليست المشكلة في عدم وجود المتخصصين في الحفاظ المعماري، بل المشكلة أولا في عجز جامعاتنا العربية في مواكبة تطوير برامجها لتلبية احتياجات بلادنا من المتخصصين في هذا المجال، وثانيا في عدم السعي لجلب هؤلاء المتخصصين من الداخل والخارج وعدم الرغبة في الاستفادة منهم إن وجدوا.

- يحتوي القصر على قيم ثقافية متعددة منها القيمة العلمية مثل ما هو الحال في نظام التهوية حيث وجد العالم برونـاي أسس علمية لنظام التهوية الطبيعية تتفق مع ما هو موجود في قصر الخرانة بعشرات القرون تسبق اكتشاف برنولي.
- استقراء قصة وتاريخ المبنى من خلال تحليل النظام الانشائي المعماري وطرق الزخرفة ومقارنتها بمثيلاتها من تلك الفترة ومقارنتها أيضا باحداث المنطقة في فترة بنائها هي منهجية في التاريخ نلجأ لها في حين عدم وجود وثائق تاريخية نعتمد عليها.
- الهدف الأساسي من الترميم هو الحفاظ على القيم الكامنة فيه (ثقافية واجتماعية) وعلى مواده الأصلية المكونة له (الحفاظ على الأصالة).
- تقديم عملية الترميم والحفاظ الأساسية على عمليات إعادة التأهيل وإضافة مراكز الزوار للمعلم لأن العملية الأولى ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها بينما الثانية فيمكن تأجيلها إلى وقت لاحق إذا قضت الضرورة.
- منهجية الترميم المقترحة تعكس المواثيق العالمية في الحفاظ، واسس الترميم، كما تعكس فهم المعلم بتراكماته التاريخية وقيمه الثقافية.

المراجع

[1] موقع www.jordan map.com

[2] Urice. *Qasr Kharana in the Transjordan*. American school of Orienta Research. Durham, 1989. p.44.

[3] حسن فتحي. *الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية*. جامعة الأمم المتحدة طوكيو. المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1986.

[4] ابن كثير. *البداية والنهاية في التاريخ*، دار السعادة. القاهرة، 1930 م.

[5] موقع الايكوموس www.icomos.org

[6] جمال عليان. *الحفاظ على التراث الثقافي. نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته*. سلسلة كتب عالم المعرفة صادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. عدد رقم 322 الكويت ديسمبر 2005 .ص 231–244.

[7] جمال عليان العمارة بين ركائز الحفاظ وقوى التجديد. مجلة القطاع الهندسي لجامعة الازهر المجاد الثالث – العدد السادس يناير 2008 م. ص 321–329.

[8] G. Carbonara. Trattato di Restauro Architettonico. UTIT, Torino 1999 pp. 22-23

[9]J. Ilayan. New Presentation "System" of Umayyad Desert Castles in Jordan. Integrated museum of Umayyad Civilization. Al Azhar University Engineering Journal. Vol. 9, No.3, Cairo Julay 2006. pp. 903-911.